حوار مع:

الأستاذ العلّامة حسن زاده الآملي

ـ القسم الأول ـ

أجرت الحوار مجلة الحوزة

منذ وقت طويل ونحن نسعى آملين في تحقيق هذا الحوار الذي نرى فيه ما ينفع القرّاء الكرام. والحمد لله، أن تحقق أخيراً ما كنّا نتمنّاه والذي تمّ بحسن قبول الأستاذ الفاضل، وكما سنورده بعد هذه المقدمة.

إنه رجل عظيم من ورثة عالم الفكر، أحد القلائل العارفين بالفكر القديم والحافظين له. وهو من مفاخر الحوزات حملة العلوم المختلفة ومن ذوي الفنون.

إنه لم يبلغ هذا المقام الرفيع الكريم إلّا بالجدّ والاجتهاد والتضحيات وتحمّل المشاق. فقد لازم أساتذةً كباراً ليأخذ عنهم العلم، وتزوّد من أخوّة العلماء طوال سنوات مديدة وعصيبة فغدا كشجرة طيبة ينتفع بها كثيرون. ولأستاذنا الكبير مؤلفات كثيرة وهي إلى جوار تلامذته العلماء صدقاته الجارية التي ينهل منها المتعطشون للمعارف.

وتحتوي هذه المقابلة على إرشادات قيمة كثيرة، هي قبسات نور تضيء القلوب. وتتجسد في الحديث عن سيرة أساتذته، الأسوة المطلوب الاقتداء بها. وفي المعلومات التي يعرضها عن حياته الدراسية ـ وهو مكره خشية هوى النفس ـ نقاط كأنها الأسطورة عن المهمة والسعي والنجاح.

وقد أجاب عن أسئلتنا بصدر منشرح وبيّن آراءه في مختلف القضايا، وزيّن كلامه أحياناً بذكرياته الجميلة ليزيد من حلاوة حديثه. ولكن ـ كما يؤكّد سماحته في هذه المقابلة ـ فالاختلاف في الرأي موجود منذ القدم. فمن الطبيعي أن يكون للآخرين أفكار أخرى، لكن طريق الصواب لا يسلك إلّا بالبرهان وبعيداً عن التعصب

والعناد.

نقدّم جزيل شكرنا لسماحة الأستاذ الفاضل الذي وافق على إجراء هذا الحوار رغم مشاغله الكثيرة واضطراب صحته.

نرجو له العافية والنجاح الدائم والتوفيق لنصرة الدين. وندعو الله المنان أن يجعلنا وجميع الطلبة من المقتدين به، ويسدّد خطانا إنه قريب مجيب.

الحوزة

□ *نرغب في البدء ببيان ما يتصل بحياة سماحتكم العلمية والتدريسية والتحقيقية. ومع أن مثل هذا الحديث، يجد الأساتذة فيه صعوبة، إلّا أنه مفيد جداً للطلّاب والباحثين، إذ ينفعهم كثيراً الاطلاع على الجهاد العلمي والفكري للشخصيات الكبيرة في الحوزة، والتوفّر على دروس رائعة وعبر تعينهم في حياتهم العلمية.*

▣ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله ربّ العالمين. وصلّى الله على سيدنا خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى جميع عباد الله الصالحين والشهداء والصديقين.

لابد في بداية الحديث أن أشكركم، وأدعولكم، أنتم الساعين في سبيل رفعة العلم والمعرفة. وأرجوه سبحانه أن يثبّت أقدامكم وأن ينوّر قلوبكم بأنوار الولاية وأسرارها (إن شاء الله).

بعد أشهر من إتمام الدراسة الابتدائية، حبانا الله بنعمته التي وضَعتنا على طريق الأنبياء والرسل وورثتهم من أرباب العلم والمعرفة.

وقد اتّجهت وقتذاك إلى دراسة العلوم الإلهية، وكان الناس في تلك الأيام قد غفلوا تماماً عن المعاد الذي ينتظرهم، وطريق التكامل الإنساني، وعبودية الإنسان لله. ولن أنسى أن جميع مساجد مدينتنا «آمل» بلا استثناء، كانت مستودعات لتخزين القطن والحبوب وأمثال ذلك.

إن ظلم النظام الملكي ـ آنذاك ـ كان عظيماً. ففي تلك السنوات التي التحقتُ فيها بسلك الطلبة، أسفرت سياسات «رضا خان» عن أوضاع متردية في البلد.

يبدو أن بعض رغبات رضا خان وأهوائه منعته يومذاك من التزام السياسة التي رسمها له الذين دفعوه إلى الحكم، الأمر الذي أودى به.

أجل لقد كانت المساجد مهانة، فقد حوّلوا أحد مساجد مدينتنا إلى زريبة ـ ومع أن هذا

التعبير يستبطن تجاسراً على بيت الله، لكني أبيّن الواقع ـ حيث كان القرويون القادمون إلى المدينة يضعون فيه خيولهم وبغالهم. وثمة حقائق أمرّ لا أرغب في التطرق إليها تأدّباً.

ولم يكن عمري في حينها يتجاوز الخمسة عشر عاماً، وهو أوان تكليفي، ولقد كنتُ أحتجّ على بعض الناس لممارساتهم الخاطئة التي أدّت إلى هذا الحال المفجع.

وقد دفعتني الالتفاتة الإلهية وعناية السماء إلى التردد على المسجد الجامع في «آمل» للدراسة، وقد انضمّ إليّ ثلاثة أشخاص، وبالتدريج أصبح عدد من الطلاب يحضرون في المسجد.

أما فضلاء مدينتنا عباد الله المتقون، فقد كانوا سادتنا وأساتذتنا، وجميعهم الآن في جوار الحق تعالى في كنف رحمته. لقد آلمهم الوضع الذي آل إليه حال الدرس والبحث والعلماء. وعندما أعربنا لهم عن رغبتنا في دراسة العلوم الدينية، ثمّنوا موقفنا وشجّعونا عليه، وسَعَوا كثيراً في سبيل تعليمنا وتربيتنا، وكانوا مسرورين لرؤيتهم عدداً من الطلبة يحضرون إلى المسجد الجامع للدراسة، في ذلك الوقت الذي انكمش فيه دور الدين كثيراً بسبب ما لقيه على يد المجرم رضا خان.

لقد كان في مدينتنا عدد من الشخصيات الفاضلة، يأتي في مقدمتهم المرحومان آية

□ إن ظلم النظام الملكي ـ آنذاك ـ كان عظيماً. ففي تلك السنوات التي التحقتُ فيها بسلك الطلبة، أسفرت سياسات «رضا خان» عن أوضاع متردية في البلد.

□ يبدو أن بعض رغبات رضا خان وأهوائه منعته يومذاك من التزام السياسة التي رسمها له الذين دفعوه إلى الحكم، الأمر الذي أودى به.

الله ميرزا أبو القاسم فرسيف، وآية الله محمد آقا الغروي. وكلاهما أدركا حوزتي طهران والنجف وكانا من طلاب حوزة النجف المعروفين وتلمذا على يد المرحوم النائيني والمرحوم الأصفهاني وآخرين، وكانا ممن يُسلّم باجتهادهم.

وعندما صدر القرار بمنع الزيّ الديني ظلّا من دون بقية علماء المدينة يرتديانه.

ومع ما يتمتع به المرحوم الفاضل الغروي من مقام علمي رفيع فإنه كان يدرسنا كتاب «صرف مير».

كان يقول رحمه‌الله: أنا ملزم بالسير كل يوم في بعض شوارع آمل وأسواقها كي لا ينسى الناس العلماء تماماً، ويعلموا أن العلماء وأصحاب منطق الوحي مازالوا موجودين، فالواجب يحتّم عليّ أن أظهر كل يوم أمام الناس.

لقد كنّا طوال ست سنوات تقريباً في آمل تحت إشراف هؤلاء السادة الذين مازلنا نذكرهم كثيراً، وهم المرحوم السيد الغروي، والمرحوم الحاج الشيخ أحمد مشائي، والمرحوم الحاج الشيخ أبو القاسم ديدكوهي، والمرحوم الشيخ عزيز الله الطبرسي الذي بذل جهوداً كبيرة، وكان خطّاطاً تعلّمنا على يديه الخط.

وفي بداية حضورنا إلى الدرس، كان المرحوم السيد عبد الله إشراقي رضوان الله عليه يدرس يومياً رسالة المرحوم السيد الأصفهاني ـ المرجع آنذاك ـ والتي تتضمّن المسائل الفقهية التي يحتاجها كل مكلّف.

وكانت دروس الأساتذة منظّمة جداً. كنا ندرس في البداية «رسالة عملية» و «النصاب» و «الأمثلة» لقد درسنا أغلب كتب «جامع المقدمات»، وحفظنا جيداً «النصاب». وبعد ذلك شرعنا بـ «السيوطي» و «الحاشية»، وبعدهما «الجامي» و «الشمسية». وإلى جانب ذلك درسنا «التبصرة» للمرحوم العلّامة. ثم درسنا «شرح النظام» في الصرف و «المطول» في المعاني والبيان والبديع و «المغني» في النحو.

وبعد الانتهاء من «التبصرة» شرعنا بدراسة «الشرايع» فدرسنا أكثره ـ تقريباً دورة واحدة ـ وتباحثنا فيه جيداً، وبعد ذلك بدأنا ـ بإجازة أساتذتنا ـ بدراسة «شرح اللمعة» و «القوانين». وحتى ذلك اليوم لم يكونوا قد سمحوا لنا بارتداء لباس رجال الدين، فلقد كانوا شديدي الاحتياط في هذه الأمور، ويعتقدون أن من يرتدي هذا الزي لابد أن يكون باستطاعته الرجوع إلى «الرسالة العملية» و «الشرايع» و «التفسير» وله القدرة على استيعابها. وكانوا ينصحوننا بتأخير ارتداء هذا الزي. وكانوا يراقبوننا دائماً.

درسنا «اللمعة» في آمل عدة مرّات، و «القوانين» حتى بحث «العام والخاص»، وبعد ذلك ارتدينا الزيّ الديني بأمر المرحوم السيد الغروي.

كانوا يحثّوننا على عدم ترك صلاة الليل ويوصوننا بقراءة القرآن صباحاً ونحن على وضوء، وأن نرقب أقوالنا ونحاسب أنفسنا، فكانوا يهتمون بشدة بأخلاقنا وسلوكنا. حقاً لقد كان أساتذة مدينتنا يراقبوننا على صعيدي العلم والعمل وكانوا أحراراً بكل ما للكلمة من معنى. وبصفتي تلميذهم طوال ست سنوات، لم أجد فيهم إلّا الصلاح والتقوى. فصحبتهم وسلوكهم وسيرتهم حسنة ونقية، يتحلّون بالقناعة، ويستعينون بالصبر والصلاة على مصاعب ومصائب دهرهم.

وبعد دراسة شيء من «اللمعة» و «القوانين»، وافق الأساتذة على ذهابنا إلى طهران لإكمال الدراسة. وقد شعرنا بعد أن حضرنا دروس الأساتذة في طهران بالخسارة لتركنا «آمل» فذهبت إلى المرحوم آية الله الحاج الشيخ محمد تقي الآملي، وذكرت له أننا جئنا من «آمل» بعد أن درسنا فيها بعض الكتب، وأن الأساتذة هنا ليسوا بالمستوى المطلوب ولا يعطون الدرس حقه كما في آمل. فدلّنا على أساتذة آخرين، ومدح المرحوم السيد الحاج ميرزا أبا الحسن الشعراني،

□ وقد دفعتني الالتفاتة الإلهية وعناية السماء إلى التردد على المسجد الجامع في «آمل» للدراسة، وقد انضمّ إليّ ثلاثة أشخاص، وبالتدريج أصبح عدد من الطلاب يحضرون في المسجد.

□ لقد كان في مدينتنا عدد من الشخصيات الفاضلة، يأتي في مقدمتهم المرحومان آية الله ميرزا أبو القاسم فرسيف، وآية الله محمد آقا الغروي.

▣ كانوا يحثّوننا على عدم ترك صلاة الليل ويوصوننا بقراءة القرآن صباحاً ونحن على وضوء، وأن نرقب أقوالنا ونحاسب أنفسنا، فكانوا يهتمون بشدة بأخلاقنا وسلوكنا.

وأشاد به، وذكر أيضاً السيد إلهي قمشئي، إلّا أن مستواهما كان عالياً جداً، فلم يكن من المفيد أن نحضر دروسهما.

ومن الذين يجب أن أذكرهم ممن كان لهم عليّ حقّ كبير أوائل مجيئي إلى طهران، وهم بمنزلة الأب الرحيم، وكانت لهم مساهمات جادّة في تعليمي وتربيتي؛ المرحوم آية الله السيد أحمد اللواساني *رضوان الله عليه*. فقد درست ـ مع عدد من الزملاء ـ عنده بقية كتب «اللمعة» حتى آخر كتاب «الحدود» و «الديات» وكذلك قسم «العام والخاص» من «القوانين» حتى النهاية، وقد تم ذلك خلال ثلاث سنين.

بعدها علمنا أن المرحوم السيد الشعراني، بدأ بتدريس «الرسائل» و «المكاسب» وعندها تملّكنا إحساس بأن الوقت قد حان لحضور درسه ولنتعرف عليه ومن ثم نصبح من تلامذته. وقد عاد عليّ حضور درسه بالخير والبركة. وتواصل هذا الحضور نحو ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً، فله حق كبير عليّ، إذ درست أغلب الكتب المهمة عنده. فدرست جميع «الرسائل» و «المكاسب» و «الكفاية»، وفصول الطهارة والخمس والحج والإرث من «الجواهر» عنده.

لقد كان حقاً صاحب فنون. وكان أنموذجاً فريداً في سعة علمه، كان ضليعاً في الفقه، والأصول، والآداب، والطب، والرياضيات، واللغة، وعلم الرجال، والدراية، والأخلاق، والكتابة بالفارسية والعربية، و...

لقد درست أكثر الكتب الدراسية عند السيد الشعراني. عندما علمت أنه متبحّر في علم الهيئة والرياضيات، أعربت له عن رغبتي في تعلمهما، فقبل بالأمر على أن يكون وقت الدرس يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع. وقد استمرّت الدراسة عدّة سنوات بدءاً من علم الهيئة بالفارسية «القوشجي» حتى «المجسطي» و...، كما تعلمت منه العمل بالاسطرلاب.

ولم أكن أعرف المرحوم السيد القزويني. ففي أوائل قدومنا إلى طهران لم يكن فيها، حتى وردها بعد فترة. فقال المرحوم السيد الشعراني إن السيد ميرزا أبا الحسن القزويني جاء إلى طهران قادماً من قزوين، ويجدر بكم أن تنظّموا دروسكم بالنحو الذي يسمح لكم بحضور دروسه. فالمرحوم الشعراني كان معلّماً مربّياً مخلصاً يدلّنا على الأساتذة النافعين والدروس والبحوث المثمرة.

عندما حضرنا عند المرحوم القزويني، تلطّف معنا منذ البداية ـ في الاسبوع الثاني تقريباً ـ فطلب مني بعد الدرس في أحد الأيام أن أجلس معه ليحادثني، فسألني عن درسي وبحثي، وأنا بدوري أطلعته على دروسي وأساتذتي. وتفضّل عليّ بأن سمح لي حضور درسين خصوصيين عنده. أحدهما في «مصباح الأنس» ـ في صباح كل يوم ـ والآخر في «الاجتهاد والتقليد» ـ في «الأصول» عصر كل يوم. ولم يكن يحضر هذين الدرسين غيري. أما الدرسان الآخران وهما «الأسفار» و «الفقه» فكانا عامّين.

وعزمت على البدء بـ «شرح الفصوص» للقيصري ومن ثم «الشفاء»، فأشار السيد الشعراني إلى أنه يفضل لو أن «فاضل التوني» يوافق على تدريسهما لي. فسألته عن رأيه بفلان؟ ذكرت له اسم أحد الأساتذة، فقال: إنه من الفضلاء لكنه ليس معلّماً كتابياً. فالطلبة يحتاجون أستاذاً كتابياً، يستنبط المطلب من الكتاب، والسيد فاضل التوني معلّم كتابي.

وأضاف المرحوم الشعراني: عندما كنّا في أعماركم، كنّا في طهران، وسماحة فاضل التوني كان من أساتذة أصفهان المعروفين، وإذا استطعتم ملازمة درسه فقد ربحتم.

وقد وفقنا الله ـ مؤلف القلوب ـ للقائه، وألان قلب هذا العالم ـ الجامع للمعقول والمنقول ـ لنا، الذي لم يقبل طلبنا في المرتين الأولى والثانية في إعطاء دروس في «شرح الفصوص» و «الشفاء» لكنه وافق في المرة الثالثة بعد أن لاحظ شدة إلحاحنا عليه.

لقد درست «الشفاء» عند ثلاثة فضلاء. فأكثره ـ من كتاب «النفس» حتى نهايته ـ درسته عند الأستاذ الشعراني ومن البداية حتى بحث «النفس» عند المرحوم فاضل التوني والمرحوم آقا ميرزا أحمد الآشتياني الذي كان جامعاً للعلوم العقلية والنقلية ومن أهل العلم والعمل. وكان يدّرس في طهران «القانون» و «الطب».

ومع أن السيد قمشئي والأستاذ الشعراني كانا يدّرسان «القانون» أيضاً، إلّا أنّ السيد ميرزا أحمد الآشتياني كان متميزاً في تدريس «القانون».

بدأت بدراسة «الشفاء» عند السيد فاضل التوني. وفي أحد الأيام طرحتُ عليه عدداً من الأسئلة، لكن إجاباته لم تكن مقنعة لي.

وبصفته أستاذاً فقد اعتبرت الخطأ منّي حيث لا أستطيع أن أستوعب الجواب.

وبعد أن انتهى الدرس، توجّهت إلى درس السيد الشعراني ـ في حينها كنت أحضر درس التوني في أول الصباح ثم أذهب إلى درس الشعراني ـ فذكرت له أن ثمة أمراً أودّ أن أطرحه مع أنه قد يستبطن شيئاً من التجاسر، فقال: وما هو؟ قلتُ له: يبدو أن السيد فاضل التوني لا يعطي «الشفاء» حقه. فقد طرحت اليوم عليه بعض الأسئلة لكنه لم يعطني إجابات شافية.

كان الأستاذ منشغلاً في الكتابة، ولم يردّ على كلامي. وبعد لحظات من الصمت التي مرّت بصعوبة بالغة عليّ وشعرت أنها تسحقني، رفع رأسه وقال لي: قلّل من دروسك، وطالِع سَلَفاً، وتأمل في درسك، وتباحث، كي تفهم الكلام!

التزمتُ الصمت، وامتعضت كثيراً خشية أن يتصور أني كما ذكرت هكذا عن درس المرحوم فاضل التوني أذكر كذلك عنه للأساتذة الآخرين.

شقّ عليّ ذلك وبقيت اليوم وليلته مهموماً حتى الغد، فلم أذهب عند السيد فاضل التوني.

وكان لدينا درس في الرياضيات وعلم الهيئة والنجوم عند الأستاذ الشعراني، وما إن دخلت عليه وجلست، حتى التفت إليّ قائلاً: كنت محقاً في اعتراضك أمس على السيد فاضل التوني. سألته: وكيف ذلك؟ قال: أصيب السيد فاضل بسكتة نُقل على أثرها إلى المستشفى. وبالأمس كان في حالة غير طبيعية بسبب السكتة دون أن يعلم. من هنا لم يكن جوابه صحيحاً ولا كلامه وزيناً.

وبعد الدرس اتّجهت مباشرة إلى المستشفى لزيارة السيد فاضل التوني، وقد شعرت بالارتياح؛ لأن كلامي لم يكن عبثاً، لأنه لم يكن مقصّراً ولأن المرحوم الشعراني أكد أني كنت مصيباً.

كتاب «الإلهيات» ـ وهو بين يدي الآن ـ من مؤلفات هذه الشخصية الجليلة المرحوم فاضل التوني، وقد كتب في مقدمته: «فيما توشك شمس عمري على الغروب، أشكره كثيراً على ما وفقني إليه. ولعل هذا آخر مؤلف لي يصل إلى الطبع وهو بمنزلة ابن بارّ عزيز، سيبقى ذكرى خالدة» وقد سجّلت بعض أحداث اليوم الذي أهدى إليّ فيه هذا الكتاب، بالعبارات الآتية:

«تشرّفت بلقاء الأستاذ العلّامة فاضل التوني بمنزل سماحته في طهران في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الاثنين المصادف ٢٣ من شهر «مهر» لسنة ١٣٣٥هـ ش (١٩٥٦م)، وقد أهدى إلى تلميذه ـ الذي يدعو له ويثني عليه ـ هذا المؤلَّف القيّم.

وفي ذلك اليوم السعيد تشرّفت بلقائه

وتوفقنا للشروع في درس «الشفاء» بعد أن درست عنده «شرح الفصوص» للعلّامة القيصري، وقد بدأنا بالمجلد الأول للشفاء من أوّله. ولم يكن هناك مَن يشاركني في حضور درس الشفاء عنده.

وفي ذلك اليوم المبارك تحدّث عن نفسه. وقد شمل حديثه عدّة جوانب من حياته، فذكر أنه بلغ الثامنة والسبعين من العمر ثم تحدّث قائلاً: سبق وأن أقمت في إحدى السنوات في مدينة مشهد المقدسة لطلب العلم. وفي شهر رمضان من تلك السنة كان طعامي في السحر خبز وبصل لشدّة الفقر إلّا ثلاثة أسحار تناولت فيها الخبز مع اللبن. ولكنني عشتُ صفاءً باطنياً وطهارة نفسية، وصرت أدرك هذه المعاني. وتذوقت حلاوة اللذائذ المعنوية والروحية في تلك السنة.

وأما إقامتي في طهران فقد استمرت حوالي أربعة عشر عاماً، أمضيت منها نحو أحد عشر عاماً في الدراسة عند سماحة الحاج ميرزا مهدي إلهي قمشئي. ودرست البحث الخارج للفقه والأصول عند المرحوم آية الله الشيخ محمد تقي الآملي، وحضرت دروس المرحوم السيد القزويني وميرزا أحمد الآشتياني، ودرست منطق المنظومة عند الشيخ علي محمد جولستاني حفظه الله ومنطق أرسطو عند السيد دانش بجوه أيّده الله الموجود حالياً في طهران.

في الحقيقة استفدتُ كثيراً من هؤلاء الأساتذة الفضلاء، فقد كانت دروسهم غنية جداً. وكانوا يتمتعون بأخلاق كريمة وفضائل رفيعة جداً، خصوصاً في بعد التعليم والتربية العملية.

إنني أحمل ذكريات رائعة عنهم. فالمرحوم الأستاذ الشعراني كان أسوة حسنة في التعليم والتربية. فلا أنسى أنه لا يعطل درسه طوال العام أبداً إلّا في يوم عاشوراء ويوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

لن أنسى يوماً كانت الثلوج تتساقط فيه بغزارة على طهران وكانت فيه عطلة رسمية لذلك ترددت في الذهاب إلى الدرس لكني بعد أن رأيت وجوب الدرس، حسمت الأمر بقرار الحضور. وعندما وصلت منزله، تمهلت قليلاً ثم طرقت الباب، ففتحوها لي، وبعد أن دخلت، قلت له: كان يجدر أن لا أتجشّم عناء المجيء في هذا اليوم. فقال: حينما كنت تأتي في الأيام الماضية من مدرسة مروي إلى هنا، كنت تشاهد الشحّاذين في طريقك، فهل وجدتهم اليوم أيضاً؟ أجبته بالإيجاب. فقال: هؤلاء لم يعطّلوا عملهم، فلماذا نحن نعطل عملنا؟!

بعد إقامتي في طهران، جئت إلى قم. فالتقيت للمرة الأولى بالمرحوم العلّامة الطباطبائي وذكرت له ما أتممت تحصيله من الدروس والبحوث وبقيت سنوات أحضر

دروسه وأستزيد من فيوضاته.

في تلك السنة التي وردت فيها، كان سماحة آية الله الأراكي يدرس كتاب الحج ـ وكما ذكرت، كنت قد درست كتاب الحج عند السيد الشعراني ـ وتشرفت باللقاء المبارك مع السيد الأراكي، وعلى مدى سنوات كنتُ أتبرك بالحضور عند آية الله الكلبايكاني وسماحة آية الله الداماد. وهكذا كنت ومازلت أقطفُ ثمار علوم العظماء.

لم أنقطع عن الدرس والبحث طوال تلك السنين. فمنذ أيام الدراسة في آمل ولأنني كنت مجدّاً في الدراسة استطعتُ أن أدرّس الكتب التي أنهيت دراستها. فمثلاً عندما كنت أدرُس «المطول»، كنت أدرّس كتاب «السيوطي» و «شرح النظام». درّست «المطول» بعد ذلك ولستّ دورات، وكذلك قمتُ بتدريس «الحاشية» وهكذا منطق المنظومة وشرح التجريد ولعدّة دورات.

وفي قم درست المنظومة، وقد أنهيت ثلاث أو أربع دورات. والآن أنا أدرّس الدورة الرابعة من «الإشارات». وقمت بتدريس دورة من الأسفار انتهت في شهر رمضان المبارك قبل ثلاث سنوات والتي دامت أربعة عشر عاماً. وحالياً أدرّس ـ الدورة الرابعة ـ كتاب «شرح الفصوص» للقيصري. وكنتُ قد درّست أربع دورات «شرح التمهيد» في الحوزة العلمية في قم، وأوشك حالياً على إتمام «مصباح الأنس».

ودرّست على مدى سبعة عشر عاماً الرياضيات وعلم الهيئة والوقت والقبلة، فكانت «دروس معرفة الوقت والقبلة» من ثمار تلك الدورة، وقد بدأنا الآن بالدورة الثانية.

وأما مؤلفاتي وكتاباتي، فقد أصدرت (٣٤) رسالة كبيرة وصغيرة حتى الآن، وهناك كثير معدّ للطبع وبمشيئة الله وتوفيقه سيُطبع.

والحمد لله تعالى أن وفّقني لهذه الخدمة، التي أرجو أن يتقبلها.

□ *نرجو أن توضحوا لنا جانباً من حياتكم الشخصية مما ترونه مفيداً للطلبة.*

▣ فيما يتصل بالمعيشة فإنه «ما من دابة إلّا على الله رزقها» ولكن يجب أن يكون اهتمام الطلبة منصبّاً على الدرس والكتاب والأستاذ وسلوك الطريق لا بالهوى والتمنّي إنما بتحمل المصاعب والمشاق. ويجب أن يكون التحرك والجهاد بعزم وإرادة واستقامة. وحذار من الترف وتشتت الأفكار.

ومن غير الممكن أن يجمع المرء بين الدراسة وإعمار الدنيا. فالشيخ الرئيس ابن سينا ينقل في إحدى رسائله المسماة برسالة السعادة حديثاً عن النبي الأكرم *صلى الله عليه وآله* جاء فيه: «إن الحكمة لتنزّل من السماء فلا تدخل قلباً فيه همّ غدٍ».

□ من غير الممكن أن يجمع المرء بين الدراسة وإعمار الدنيا. فالشيخ الرئيس ابن سينا ينقل في إحدى رسائله المسماة برسالة السعادة حديثاً عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله جاء فيه: «إن الحكمة لتنزّل من السماء فلا تدخل قلباً فيه همّ غدٍ».

فالنفس المطمئنة يمكنها أن تحصل على العلوم والمعارف وتستزيد منها. بينما لا تحقق النفس المضطربة شيئاً. والشخص المشتت الخواطر والأفكار لا يمكنه أن يصير عالماً. فالمطلوب همّ واحد. فإنه لا يجتمع التعقل مع التعلق.

اقرأوا كتب التذكرة، تعرّفوا سِيَر العظماء. لاحظوا كيف أعرضوا عن شهواتهم النفسية في سبيل حبيبهم ـ أي تحصيل العلم والكمال. ولذلك أفلح مثل الشيخ الطوسي والعلّامة الحلّي والمحقق الطوسي والفارابي والملّا صدرا وصاحب الجواهر و...

ثمة خاطرة للمرحوم الشعراني نقلها لنا يوماً عن أستاذه ميرزا محمود رضوان القمي [تتلمذ السيد الشعراني على يد أساتذة كثيرين في طهران وقم والنجف. وفي كل من هذه الحوزات الثلاث كان له أساتذة كبار جداً، وأحدهم كان المرحوم محمود رضوان القمي والمدفون إلى جوار السيدة معصومة *عليها السلام*] حيث قال:

تردّد الأستاذ رضوان القمي قليلاً عندما كان يدرّس الأسفار في أحد الأيام، ثم تأمّل قليلاً في الموضوع ـ وقد كان أستاذاً محنكاً في هذا المجال ـ وبعد أن انتهى من شرح الدرس اعتذر لتأمله وقال: إن كان لكم مثل ظروفي لنسيتم تماماً هذه الكلمات القليلة التي أعرفها.

فقد نقل لنا أساتذتنا أنه (المرحوم رضوان القمي) كان معدماً، وكانت حياته صعبة جداً، ورغم ذلك استمر في الدرس والبحث. فهؤلاء هم المؤمنون المتقون الصابرون وهم حجة على غيرهم.

□ *إن سماحتكم من القلائل الذين استفادوا طوال حياتهم الدراسية من أساتذة كثيرين. فبلحاظ هذه الخصوصية، نرجو أن تبيّنوا دور الأساتذة البارزين في بناء شخصية ونفسية طالب العلم ـ في علمه وأخلاقه ـ؟ وهل يكمن سرّ النجاح والتفوق في الأستاذ أساساً أم اجتهاد طالب العلم؟ ولأيهما الوزن الأكبر؟*

■ لي ذكرى حول هذا السؤال، مع أنها قد تحمل والعياذ بالله مدحاً للنفس، لكني أذكرها لتوضيح الموضوع.

كنت يوماً عند سماحة السيد قمشئي، فقال: سترى خيراً، قلت: إلهي آمين، لكن لماذا تحدثت بهذا؟ وعلى أي أساس بشّرتني برؤية الخير؟ أجاب: لأنك شديد التواضع لأساتذتك، وتراعي الأدب معهم، وتذكرهم بخير. فالأدب والتواضع يوصلانك إلى الخير.

فأنا أسعى جاهداً لإبداء أعلى درجات الاحترام للأساتذة فلا أستند إلى الجدار بحضور الأستاذ، ولا أجلس بشكل يخلو من الأدب، وأحفظ كلامي من التكرار. وأتحاشى اللجاجة خشية أن ألحق أذىً بالأستاذ.

كنتُ ذات مرة مع السيد قمشئي وكان جالساً بصورة تظهر قدمه اليمنى ـ من تحت فخذه، وكنت جالساً إلى جانبه، فانحنيت وقبّلت قدمه. فالتفت إليّ وسألني عن سبب هذا العمل. فقلتُ له: لا أجدني أهلاً لتقبيل يدك، وتقبيلي قدمك مدعاة لفخري.

أجل، ولم لا أفعل ذلك؟! كنت معه نحو اثني عشر سنة، خلالها درست عنده ـ بعد صلاتي المغرب والعشاء من كل يوم ـ المنظومة باستثناء منطقها، ومن أول إلهيات الأسفار إلى آخرها، ومن أول النمط الرابع للإشارات إلى آخرها.

ومع أني درست عند أساتذة كثيرين، فمثلاً درست الأنماط الثلاثة الأخيرة للإشارات عند السيد الشعراني، ودرست الأسفار عند السيد القزويني والسيد الشعراني.

إلّا أني أودّ أن أتحدث عن فضائل السيد قمشئي الأخلاقية ووضعه المعيشي.

في البداية ذهبت إليه بناءً على توصية آيةالله الشيخ محمد تقي الآملي، فقلت له: بعثني آية الله الآملي لتعقد لي درساً إن أمكن ذلك. فرفض واعتذر بعدم توافر الوقت. وقتذاك كنت في مدرسة «الحاج أبو الفتح» وكان منزل السيد قريباً من المدرسة. وقد صبرت يومين أو ثلاثة ثم عدت إليه قائلاً: طلبت منك قبل يومين أو ثلاثة أن تعقد لي درساً. أريد أن أدرس المنظومة، فأرشدني إليك السيد الآملي والسيد الشعراني.

بدوره امتدح المرحوم قمشئي كثيراً المرحوم الشعراني ودعاني إلى أن أعرض

طلبي عليه، فقلت له: هو أيضاً ليس لديه الوقت الكافي. فأعاد المرحوم «إلهي قمشئي» جوابه قائلاً: ولكن أنا أيضاً لا أمتلك وقتاً لذلك.

ثم مضت عدة أيام، فعاودتُ الذهاب إلى منزله، وقلت له: ابدأ معنا وفق ما تستدعيه المصلحة، فإن لم نكن أهلاً ولا ترى مصلحة نترك الدرس. وإذا كنّا طلبة مجاهدين مخلصين حقاً، فعاملنا كأولادك. فَلانَ كثيراً هذه المرة وطلب أن نمنحه فرصةً للتفكير فيما إذا كان لديه متسع من الوقت. فسُررت كثيراً. وبعد أن رضيني تلميذاً عنده، قال لي يوماً: عندما رأيت إلحاحك وقتذاك جئت إلى مدرستك وكان باب غرفتك مقفلاً. فسألت الطلبة عن وضعك الدراسي. فأجمعوا على أنك عاكف على الدرس والبحث وعبّروا عن رضاهم عنك. ومع ذلك عدت إلى البيت لأنظر في قبول الدرس، فاستخرت بالكتاب العزيز فكانت هذه الآية الشريفة: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ فاطمأن قلبي كثيراً ووافقت على تدريسك.

كان أستاذنا المرحوم سماحة السيد الشعراني رضوان الله تعالى عليه يقول لمن يطلب كتاباً منه، أن كتبه لازمة وليست متعدية ـ لأنه كان يحتاج إلى الكتب في عمله ـ مضيفاً: وإذا استُعيرت مني ولم أجدها وقت الحاجة، فأين أبحث عنها؟ مع ذلك كنتُ كلما أطلب منه كتاباً لم أسمع منه تلك الإجابات وإنما كان يقول: الكتاب هناك خُذه. أو كان بنفسه يعطيني إيّاه. ومازلت أحتفظ ببعض النسخ المستنسخة عن كتبه منها «شرح الاسطرلاب» للبيرجندي.

ذهبت يوماً لزيارة المرحوم السيد ميرزا أحمد الآشتياني، وكان يوم عطلة (يوم خميس أو يوم جمعة)، وحينما وصلت وجدته يتحدث عن فضائل أستاذه المرحوم ميرزا حسن الكرمانشاهي الذي كان من كبار أهل العلم والأدب. وكان ابنه السيد ميرزا محمد حسن الآشتياني من علماء الطراز الممتاز في طهران. وقد قال لي المرحوم العلّامة الطباطبائي: عندما كنت وأخي «آية الله السيد محمد حسن القاضي» في النجف، كان السيد الآشتياني مدرس الأسفار الأول بلا منازع.

وبعد دقائق، نهض السيد أحمد إلى مكتبته وجاءني بحواشي المرحوم الأستاذ الكرمانشاهي على الأسفار، ودعاني إلى أن أستنسخ عنها.

لقد كانوا ـ أساتذتنا ـ يهتمون في تربية الطلاب إلى هذا الحدّ.

من الألطاف الإلهية التي منّ الله تعالى بها علينا، أنّ أساتذتنا مذ كنت في آمل، كانوا ـ إضافة إلى وافر عطائهم في الدرس والبحث ـ عطوفين رحماء أجلّاء كريمي النفس، كانوا

لنا بمنزلة الأب الرحيم.

فطوال أربعة عشر عاماً قضيتها في خدمة المرحوم الشعراني، لم أسمع منه ما يغيظ. أذكر أننا في أحد الأيام تناقشنا كثيراً في درس «المكاسب» فعاتبني بقوله: أيها السيد ليس المطلب بالأهمية التي يستحق بها هذا الإلحاح. يشهد الله أني لم أرَ منه إلّا ما يسرّ. وهكذا كان الأساتذة الآخرين رحمهم الله، لم يبدر منهم عبث أو أي قسوة. بل كانوا غاية في الإنصاف والحكمة واللين.

هنا أتذكر ما وقع لي مع المرحوم السيد الشعراني، أنقله، وإن كان هناك صعوبة في نقله لاحتمال التجاسر والعياذ بالله ولكن في الأمر فائدة إن شاء الله.

ذات يوم في درس الأسفار ـ وكنت التلميذ الوحيد في الدرس ـ شرح السيد عبارة للآخوند ـ كانت مثالاً ـ وبعد أن استمعت إليه بيّنت له رأيي، وهو أن المراد من هذا المثال شيء آخر غير ما تفضّل به فأجاب: كلّا. الأمر ليس كذلك، وأوضح رأيه مرّة أخرى.. أما أنا فلم أتابع المسألة أكثر. ولكن في اليوم التالي فاجأني السيد بقوله ـ معترفاً ـ لي: كان تصوّرك بالأمس عن عبارة الأسفار صحيحاً، ولك الحق في رأيك.

هكذا كان هؤلاء الأفذاذ، وهكذا كانوا يعلموننا ويربّوننا.

أما بالنسبة للشق الآخر من سؤالكم فيما يتصل بالعامل الأساس للنجاح، الأستاذ أم الطالب؟ فجوابه أن النجاح يأتي من كليهما. فيجب أن يكون الأستاذ ضليعاً بمادة درسه مقتدراً على بيان المطالب، رؤوفاً رحيماً. وعلى الطالب أن يكون مجداً مجتهداً وصادقاً ومخلصاً. على طالب العلم أن يبذل جهوداً عظيمة وأن يتحمل الصعاب وأن يبتعد ويعرض عن كل ما سوى الله وطريق الكمال. وإلّا فإن كثرة التعلقات واختلاف الهموم الدنيوية لا توصل المرء إلى العلا.

□ ***منذ القديم كان الطلبة يواجهون هذا السؤال: بعد الانتهاء من المقدمات هل يتجه الطالب إلى التخصص أم إلى الشمولية؟ يصبح ذا فن أو ذا فنون؟ ثمة نظريات مختلفة بهذا الشأن، فما العمل الأفضل بنظر جنابكم؟***

▣ ما هو هدفنا؟ هدفنا، الوصول إلى منطق الوحي وقوانين المدينة الفاضلة الإلهية. وتلك القوانين هي القرآن والسنّة، ومجاميعنا الروائية هي شعب القرآن وناشئة منه وحسب تعبيري فهي قرآن متنزل. ترى كيف كان القرآن ومجاميعنا الحديثية؟ هل كانا متخصّصيين؟ أم شاملين؟

كيف يمكن للعالم أن يتخصص بمجال واحد؟ فهو يحتاج إلى الآداب والمنطق والفلسفة ويلزمه العرفان، الذي يجب عليه أن

▣ من الألطاف الإلهية التي منّ الله تعالى بها علينا، أنّ أساتذتنا مذ كنت في آمل، كانوا ـ إضافة إلى وافر عطائهم في الدرس والبحث ـ عطوفين رحماء أجلّاء كريمي النفس، كانوا لنا بمنزلة الأب الرحيم.

يفهم كل ما صدر عن الأئمة المعصومين فيما يتصل به ـ وهو فوق بيان كل عارف ـ ويحتاج إلى الفقه والأصول و...

فديننا يمثل موسوعة المعارف الإلهية السامية، يجب على العالم أن يطالعها ويفهم لغتها. فإذا أراد الطالب أن يدرس العلم، عليه أن يكون محيطاً بدائرة المعارف هذه، وأن يكون في كل فن بارعاً قوياً، كما كان عظماؤنا. قال المرحوم فاضل التوني: عندما يصل الطالب إلى كتاب «الإرث» في الجواهر يجد أن صاحب الجواهر عالم رياضيات قدير له باع في الحسابات والتقسيمات.

هل يصحّ ألّا يكون الفقيه محيطاً بالرياضيات؟ وبعلم الهيئة والنجوم؟ ليلقي نظرة إلى اللمعة وإلى مستند النراقي، ليرى كيف بحثوا في القبلة؟

في بحثه عن الفجر الصادق والفجر الكاذب في «مفتاح الفلاح» نجد سماحة الشيخ البهائي ورغم حنكته في الرياضيات ينقل البحث الرياضي عن كتاب التذكرة ـ وهو كتاب فقهي ـ للعلّامة الحلي قدس سره، هذا العالم الجليل البحر الواسع. كان أستاذنا المرحوم الشعراني يقول: إذا أردنا أن نذكر عالماً متميزاً فذّاً نعدّه نموذجاً في كل فن، فعلينا أن نذكر العلّامة الحلي.

فإذا أراد الطالب أن يدرس العلم، يمكنه أن يصبح أديباً وفقيهاً ورياضياً، وطبيباً أيضاً. وهكذا كان أساتذتنا، فمثلاً السيد الشعراني كتب «مدخل الأصول» إلى جانب شرح الكفاية، إلى جوار شرح «الرسائل» بالفارسية وقد كتب حاشية على «قواعد» المرحوم العلّامة، إضافة إلى شرحه للمختصر وتعليقه على «الوافي»، وحواشيه على «مجمع البيان». وله رسائل أخرى كثيرة. ثمّ إنه كان يدّرس «القانون» و «الاسطرلاب» و «الزيج» و «المتجسطي».

فالقول أريد أن أكون عالماً في فن واحد، ناشئ عن الخوف من الدراسة. وفي

▣ هدفنا، الوصول إلى منطق الوحي وقوانين المدينة الفاضلة الإلهية. وتلك القوانين هي القرآن والسنّة، ومجاميعنا الروائية هي شعب القرآن وناشئة منه

▣ كيف يمكن للعالم أن يتخصص بمجال واحد؟ فهو يحتاج إلى الآداب والمنطق والفلسفة ويلزمه العرفان، الذي يجب عليه أن يفهم كل ما صدر عن الأئمة المعصومين فيما يتصل به ـ وهو فوق بيان كل عارف ـ ويحتاج إلى الفقه والأصول و..

«الشفاء» يعتبر الشيخ ابن سينا الذين يخشون الدرس ويرفضون تعلم كل شيء، لا يملكون مزاجاً معتدلاً. أي إنهم مرضى. والمرض نفسي أو روحي أو مرض التعلق بالدنيا. وهذا المرض يدفعه باتجاه الدنيا والمادة من دون أن يعي. لذلك يجب أن يعالج الطالب نفسه من هذه الأمراض الخطرة، فلا ينبغي أن يتعب ويكلّ من الدراسة. ليكن شعار الطلبة:

أسعى مادامت روحي في جسدي

حتى أذوق قطرة من كأسه.

إذا ركّز الطالب ذهنه وجدّ في دراسته استطاع أن يبدع في مختلف العلوم والفنون.

□ *فيما يتعلق بمنهجية الدراسة المتبعة في الحوزات، فإن فيها إيجابيات ويحتمل أن فيها بعض النقائص ـ خصوصاً المتون الدرسية ـ ما هي برأيكم إيجابيات هذه المنهجية؟ وإن كان ثمة نقائص فما هي السبل الكفيلة برفعها؟*

▣ في عقيدتي أن الطريق يُسلك كما سلكه أهله، فالمنهجية الأفضل هي التي اعتمدها السابقون. ولست راضياً عن الاستغناء عن بعض الكتب ـ والتي أهملت هذه الأيام ـ فمن المؤسف الاستغناء عن «القوانين» و«الفصول» مثلاً. فالقوانين وعدّة الأصول للشيخ الطوسي، هي غير المسائل الأصولية

الدارجة، إذ إن فيها مباحث قيّمة. فمثلاً طُرح في «العدّة» و «القوانين» ما هو الدين الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثة؟ ويؤكد في آخر قانون: الحقّ أن نبينا صلى الله عليه وآله كان قبل بعثته على دينه[1].

فلماذا نحول بين الطلبة وهذه البحوث؟

يجب أن يقرأ الطلبة «المطول» و «الكشاف» ويطالعون تفسير «مجمع البيان» هذا الكتاب العلمي العميق الواسع. وعلى سبيل المثال أنا أرى أن من بين التوفيقات أني درست «شرح الشاطبي» عند المرحوم الشعراني. فهذا الكتاب يضمّ أكثر من ألف بيت شعر تبيّن التجويد الاستدلالي للقرآن. والأستاذ الشعراني كان يقول: في زماننا كانوا يدرسون هذا الكتاب.

لا أدري كيف يصبح الطالب عالماً؟ فمع أننا درسنا هذه الكتب وغيرها وتباحثنا فيها، فلم ندّعي أننا نعرف شيئاً! ترى ما هو حال الطلبة هذا اليوم الذين أهملوا مطالعة كتب كثيرة قيّمة لها أهمية بالغة؟

إني أجد كثيرين تدور أحاديثهم حول بعض الكتب التي يجب أن لا ينشغلوا بها.

كما أن ما أشاهده من التسرّع في تحصيل الدراسة عند بعض الأعزاء أمر غير صحيح أبداً، فالعجلة لا يمكن أن توصل إلى الهدف الحقيقي. فمن الثابت أن الطالب لا يحقق هدفه تماماً في غياب التأمّل الكافي والتأني.

فإنّ الطريق الصحيح لكي يصبح الطالب عالماً هو في أن تكون المقدمات قوية رصينة ومتينة، وأن يكون ورود العلوم بخطوات هادئة وبرفق فلا تجد العجلة إليها سبيلاً.

لقد تباحثنا في أكثر الكتب التي ذكرتها. ويمكن أن يتوجه انتقاد لطريقة مباحثاتنا حيث كنّا نتباحث مثلاً في «الكفاية» ـ التي درسناها عند السيد الشعراني ـ قبل أذان الفجر بساعة. وجميع «الإشارات» تباحثنا بها بعد الظهر بساعة.

وتباحثنا بين الطلوعين في «الأسفار» أو «المكاسب» أو «الجواهر». وقد كنّا نطالعها مسبقاً، ونسجّل ملاحظاتنا والتي نستفيد من كثير منها في المباحثة وبعدها.

□ إن الطريق يجب أن يُسلك كما سلكه أهله، فالمنهجية الأفضل هي التي اعتمدها السابقون. ولست راضياً عن الاستغناء عن بعض الكتب، والتي أهملت هذه الأيام.

---

(١) «القوانين» ج ١، طبعة عبد الرحيم.